(٢٢)

ضمير يتكلم
مع نفس تتألم

حديث الجمعة

٢ رمضان ١٣٨٠ هـ - ١٧ فبراير ١٩٦١ م

يا أيتها النفس المطمئنة: ارجعي إلى ربك راضية مرضية! أما سمعت يا أيتها النفس الحائرة؟ أيتها النفس الدائرة! أما آن لك أن تخرجي من دائرتك فتخرجين من حيرتك! زعمت الإيمان وقلت بالإسلام، ووهمت التوحيد، وجانبت التعديد، وادعيت القرب، وتخيلت الوصل، نطقت بما ليس له شاهد في القلب، وبما ليس له ظاهر من العمل، واكتفيت بالنطق وقصرت في الفعل، وتجنبت الوعي فزلت بك القدم.. تقولين ما لا تفعلين، فتزدادين بعملك مقتا من الله، وبصلاتك بعدا عن الله، وبمناسكك جفوة مع الله. تتعاملين معك بوهم التعامل معه، وتتحابين مع أوهامك بزعم المحبة له...

إلى متى؟! وحتامَ يكون هذا حالك؟! وكيف يكون به في الله مآلك؟! ها أنت تستودعين شعبان فهل خرجت منه ببيان؟ وإلى أي الشعبين رجعت؟ ومن أيهما صرت؟! وها أنت تستقبلين رمضان فهل تهيأت له بعرفان؟! ومن أي الرمضائين أنت؟! أمن رمضاء جزائك واصطلائك أم من رمضاء رجائك واستوائك؟!

أعلَمك من تزعمين متابعته، وتدعين مبايعته، وتتوهمين الصلاة عليه، وتزعمين الصلة به.. أعلَمك أن شهر شعبان شهره، وأن شهر رمضان شهرك. فهل عرفت شهره فعرفتيه؟ وهل عرفت شهرك فوفيتيه؟!

إنه في شهره مواقيت للناس ومواقيت للحج. إنه في شهره معارج للناس به وانحرافات للناس عنه. فيها تصاعد إليه وترقٍ فيه وتخلف عنه أو ارتباط به. إنه في شهره أسوة وقدوة. يبدأ هلالا من محاق، بدء الناس من أنفسهم بالحياة، ويتكامل بدر تَم يشرق في قلوب الناس من أنفسهم، يبعث في الناس من متابعيه بحقه، يسرى في الناس بنوره من نور ربه - وقد خرج من الظلمات إلى النور فيه -. إنه كمال الناس للناس. إنه شرف الناس للناس. إنه معنى الناس للناس. إنه قدس الناس للناس. إنه ذات الناس للناس وجها لرب الناس ملك الناس إله الناس، ثم يغيب في أحسن تقويم تكنزا ارتداد الناس

عن أحسن تقويم قنوطا ويأسا يتضاءل لعيون الناس نوره، وينمو في القلب سره، مسربلا بسربال حجابه من تخلقه، حتى يدخل في محاقه ختما بهلال كما خرج من المحاق بدءا بهلال، على سنن قانون الله، وفعل الله في الناس، وإرادة الله بالناس، وقيام الله في الناس، وعمل الله على الناس، وتداول الأيام والليالي بين الناس.

(شعبان شهري)[1].. نعم.. الشعبان منه، إنه الناس في ظلام خلق الناس.. وإنه الناس في إشراق قلوب الناس.. إنه الوجوه الناضرة.. إنه الوجوه التي عليها غبرة.. إنه الناس والناس نيام.. إنه الناس والناس قيام.. إنه الناس والناس موتى عن أنفسهم مبعوثين بالله، بعثا به. أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع.. لقد تخلينا عن أمرنا، وأمر أنفسنا، وأمر عزلتنا، وأمر أنانيتنا، إلى أمرك أنت أيها الحق، رسولا إلينا من غيبك.. قائما فينا وقائما بيننا من أنفسنا من شهادتك...

سيد الناس.. سيد الأجناس.. رب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.. متى تُسفر للناس؟ لقد أعجمت وعن إقدام بالسفور أحجمت.. فمتى تسفر للناس وقد جد في الناس جديدك، وتكاثر في الناس وليدك؟ وتواجد في الناس من الشهداء عديدك؟

أيها الآب.. أيها الأب.. أيها السيد.. أيها الحق.. أيها الذكر.. أيها الوجه.. أيها العتيق.. أيها الطليق.. أيها الحر.. متى يسعد الناس بطلعة وجهك وجها لله، يؤمنون بك إيمانا به، ويؤمنون به إيمانا بك؟ يا عبد الله.. ويا عين الله.. ويا وجه الله.. ويا قدم الله.. ويا يد الله.. ويا رحمة الله.. ويا أقدس من ذواتنا في ذات الله.. روحا لله.. يا عَلَم الله.. ويا معلوم الله.. ويا عالم الله.. ويا وصلة الله.. ويا جبريل حق الله.. ويا ملائكة الله.. ويا أنوار الله.. ويا حملة عرش الله.. ويا عرش الله.. ويا كرسي الله.. يا عبد الله.. ويا معروف الله.. ـ عند العارفين بالله ـ ويا سر الله.. ويا كون الله.. ويا وجود الله.. ويا يد الله لوجود الوجود لله.. ويا عالم الله.. يا عالم عوالم الله.. ويا يد الله لخلق عوالم الله.. ويا بشرية الله.. ويا إنسانية الله.. ويا خلق الله.. ويا ذكر الله.. ويا قديم ذكر الله.. ويا جديد ذكر الله.. ويا محدث ذكر الله.. ويا ذكر الله.. - ما ذكرنا الله - يا رسول الله - ما كان لنا الله -.

نعم الشعبان شعبك، فالظلام سكونك، والنور إشراقك، والسر وجودك، والجهر قيامك، والعقل كتابك، والقرب وجهك، والتوحيد كونك، يا من عَرَف الله فعُرف الله.. ويا مَن وجَد الله فوُجد الله.. ويا من وحَّد الله فوُحِّد الله.. ويا من تخلق بخلق الله فتخلَّقت منه عوالم الله، وأكوان الله في وجود الله.

شعبان شهره: برجب الله وصلته، وفي رمضان الناس وجوده وشرعته.. إنه شهر أمته.. فيه يعمل الناس شيئا، ويقومون قياما، إن صلحوه به صلحوا، وله أدركوا. وإن كانوا في رمضاء يخرجون منها إلى رمضاء، فهو معهم يتبعهم، ويسمعهم، ويراهم ويستغفر لهم.. أمة مذنبة ولكن! لها أب غفور. ما عرفوه لهم ربا فعرفوه لهم قديما وجدًّا، وكان لهم في أنفسهم من الحق وجودا وودًّا.. لجأووه في السموات ولجأوا إليه في الأرض يوم يعرفونه. جاءوه بالتجمع عليه فردا عبدا للرحمن، ووجها للديان. أعدهم في أماكنهم من نفسه ووجوده إعدادا وعدا. وما ظلموه وربه مختلفين ولكن ظلموا أنفسهم - إذ جحدوه وربه غافلين - وعلى أنفسهم قاسوه فقدروه بوهم تقديرا لعبد لله - وما قدروا الله حق قدره فقدروا معنى العبودية له - وما عرفوا رسول الله، فقدروا العجز عن إدراكه فتقدر عندهم الله في عظمته من قربه وبعده.

كيف يقدرون الله وهو عليهم شهيد في قوانين كونه في وعيهم وفي عقائدهم وفي غيبهم - إذ هو غيب أنفسهم وظاهر ما يحيط بهم -؟ لم يخرج بهم من غيبه في إدراكهم، أو في وعيهم، أو في مسلكهم، أو في طلبهم، فكيف يكون غيبا من هو أقرب إليهم من حبل الوريد؟ غيبوه ففقدوه ولو طلبوه في أنفسهم لوجدوه.

وها هو رسول الله بينهم بنفس الكيل يكيلونه، وبنفس العيون يشهدونه، ومخاصمة لربه يخاصمونه. ولكنهم لن يفقدوه لأنه الرب الغفور على ما سوف يجدونه، لأنه الرحمة للعالمين، لأنه السيد الذي رأى السيادة في خدمة مسوده، ورأى العظمة في مقاربة أهل جحوده، وفي إكبار وتكبير موجوده.. إنه الغني عن العالمين.. إنه الفقير إلى ربه - ربا للعالمين - المستغني بربه عن كل ما عداه.. القائم بربه بعيدا عن كل ما سواه.. الظاهر بربه ولا ظهور لربه إلا به وبمعناه من أوائل عباد الله. ولا رحمة من ربه إلا به وبمعناه من رحمة الله. ولا تواجد لربه في متواجد فيه إلا بتواجده أو بتواجد معناه.

اقترنت الشهادة لله بالوجود والوحدة والأحدية اقترانها بالوجود له منه والرسالة به إليه، فالرسول من المرسل والمرسل إليه إنما هو ضمائر الناس إذا بعثت.. إنما هو قلوب الناس إذا حييت.. إنما هو عقول الناس إذا أشرقت.. إنه نفوس الناس إذا تزكت.. إنه قيام الناس إذا قامت لهم فيه به قيامة.. إنه بشرى الناس إذا ما انقطعت بقطيعتهم عن غير الله ندامة. إنه وحدانية الله.. إنه كلمة الله.. إنه روح الله.. إنه نور الله.. إنه وجه الله - ذكرا وحسا - إنه اسم الله - وجودا وقولا - إنه هدي الله - كتابا وعلما- إنه حق الله - طلبا وفقدا -.

هل طلبه الناس فطلبوا الله؟ هل أدرك فقده الناس فأدركوا فقدهم لله؟ كيف تقدرون الرسول؟ وكيف يقدر عند الناس الرسول؟ وكيف تدرك النفس شيئا من معاني الرسول وهي تتعدد معه؟ ما

أدركا إلا ادعاء! وغطرسة وكبرياء (نور الشرق وبأس العرب)؟! ما كان للشرق نور إلا بالرسول في تكامل نوره، وما كان العرب أولي بأس إلا به، وما كان العرب في بؤس إلا بالتخلف عن ركبه.. أعطوا العزة.. فما كان العرب في بيئتهم في عزة وقد انفرط عقدهم وتفرق جمعهم. ولكنهم أعطوا العزة برسول الله جمع شملهم.. أعطوا العزة برسول الله وحد صفهم.. أعطوا الدنيا برسول الله يسر أمرهم.. أعطوا الآخرة برسول الله قوم طريقهم.. أعطوا الكتاب برسول الله بين لهم.. أعطوا المال والجاه والسلطان برسول الله نشر سلطانهم.. أعطوا حسن الخلق برسول الله بُعث فيهم.. أعطوا كل شيء باجتماعهم على رسول الله بوصفه وتخليهم عن كل شيء بوضعهم.

فماذا فعلوا برسول الله؟ وماذا فعلوا ببيت رسول الله؟ أسوأ ما فعلت أمة بزعيمها وببيت زعيمها.. أدنأ ما قام به آخذ لمعط، بالمخاصمة لبيته حتى آخر لحظة من حياته، جابهوه فغفر كما هو له أهل. وما هيأوا لأنفسهم الفرصة أن يخرج من دنياهم وقد أدخلهم في دنياه وهي أخراهم.. حتى إذا ما احتجب جلبابه - الذي عرفوه - وقام جلبابه الذي أنكروه وجهلوه، وبظلام أنفسهم جحدوه، وعن عيونهم بأيديهم أبعدوه فحجبوه، فما آمنوه وما استأمنوه وما تابعوه، بل وما تركوه في شأنه. ولكنهم ظلما لأنفسهم ظلموه، وامتدت أيديهم إلى بيته فهدموه، وإلى ذاته فقتلوه، ودمه شربوه.. وليتهم بيقظة امتزجوه! فحيوه.. فبعثوه.. فقاموه. لو أن ضمائرهم استيقظت فذكروه لكانوا بعقولهم أدركوه، وبأنفسهم سعدوه، وغفورا لفعلتهم وجدوه، ووداد ليقظتهم عرفوه، فأنصفوا أنفسهم إن أنصفوه، وأحيوا أنفسهم إن عشقوه، وطلبوا الله إن بينهم وفيهم طلبوه، وبكوا غفلتهم يوم بكوه، فعرفوا جنتهم أكتعين يوم ذكروه، وبينهم قائما طلبوه، ولعرفوا ربهم يوم يقوموه، وأدركوا رسولهم يوم يفنون عنهم فيبقوه، وكتاب الله أنفسهم يقرأوه، ونور الله فيهم يسعدوه، وهدي الله طريقهم يعرفوه، وكلمة الله دواما يتبعوه.

ولكن أمة تغفل رمضانها، وتفقد شعبانها، ولا تلبي رجبها، مآلها لما تنزع إليه من الشوى بجهل شوالها. عذابها كان غراما يقدمون على جهنم بما كسبت أيديهم، ويقبلون عليها بما أشربوا من حبها، ويدانونها من أنفسهم لا يكرهون غرامها.

هل أدرك الناس أن دينهم، وكتابهم تجمع في مسميات من أشهرهم؟ ما ترك الرسول دربا من دروب الفكر، ولا طريقا من طرق العمل، ولا لونا من ألوان الحكمة، ولا أسلوبا من أساليب التعبير، ولا بابا من أبواب التذكير إلا قدمه لهذه الأمة. وما تركت هذه الأمة لونا من ألوان الإساءة، ولا أسلوبا من أساليب الجحود، ولا طريقا من طرق العمل الملتوي إلا قامته وسلكته، في مخاصمة له وهدما لنفسها بهدمها لبيته وعترته، بينما تتجدد وتتعدد تجديدا لأمور دينها. وما خاصمته سافرة، وما

نالت منه معبرة، وما ضرته فاجرة، ولكن في صورة الصديق الجاهل لباطنها أساءته ولنفسها ظلمته، فما في نفسها أحبته، وفي ظلامها نورا أدخلته.

(إن الله لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية)[٢]. وإن رسول الله لا تنفعه إجابة ولا تنقصه مخاصمة.. إن لرسول الله من الله في الله عين ما لله في نفسه. {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}[٣]. إن من صار عبده صاره. لا يحتاج ولا يسأل بل يحتاج إليه ويُسأل. فما ظنكم برسول الله الذي شرَّفه بالعبودية له فشَرُف بالظهور به.. عبدا لله الذي لا يعرف له ابتداء.. عبد الله الذي لا يدرك له انتهاء.. عبد الله ورسوله.. عبد مرسله وعين مرسله، وعين من آمن به رسولا وعبدا.. إنه لا ينفصل عن محبيه ولا يتعدد مع مريده، كما لم يتعدد مع مربيه ومرسله وربه.. إنه تعالي الله يوم تعالى في ملكوته عبد الله. إنه تداني الله يوم تدانى في ملكه عبدالله. إنه رسول الله في صمدية الله، وفي أحدية الله، وفي واحدية الله، وفي وحدة الله، وفي وجود الله.

ماذا أدرك الناس، وهم يزعمون متابعته وما تبعوه، ولا تابعوه، ولا حتى في أنفسهم حاكوه أو قلدوه، لا بل ولا في ضمائرهم رضوه؟ أَربا طلبوه؟ أسيدا على أنفسهم عشقوه؟ أإلها كبيرا مدانيا افتقدوه؟ لا. لا. إنه على مثال من حاضر أنفسهم وصفوه، فما أدركوه، وما أدركوا أنفسهم في الله إذ أنفسهم فيه ما دخلوه. إنهم بأنفسهم فيه في نفس الله وما عرفوه. وإنهم بوعد الله في نفسه إن طلبوه، فجنة لهم دخلوه، وبابا لحضرة الله عرفوه، فتفتح فولجوه.

ولكن أين هم من فهم فيه، أو إدراك له، حتى يعرفوه أو يطلبوه؟ إنهم في رمضائهم يدعوه.. وما في أنفسهم قصدوه، ولا في قلوبهم عرفوه، ولا في أفئدتهم نزهوه.

هذا هو حال أمته على ما عرفتموه.. إن موعدهم الصبح وليس الصبح ببعيد. إنه فجر منامهم وختام أيامهم. إن موعدهم يوم تأتي سكرة الموت إذ تأتيهم بما كانوا عنه يحيدون، وله يفقدون وما يدركون، وكذبا ونفاقا يزعمون. فإن كذبهم ما سوف يشهدون وليس حقهم ما سوف يجدون. إنهم على ما كانوا في ظاهرهم من الحياة يبعثون، وعن أنفسهم دون غيرهم يعرفون.. كفي بنفسك عليك حسيبا، لقد كنت في غفلة من هذا، عمله سراب بقيعة، وجد الله عنده قائما على كل نفس.

فإلى متى يبقى هذا حالنا ننتظر ما لا ينتظر! ونجهل ما نحن فيه من أمر ومن قيام ومن خبر! نسأل الله أن يخرج هذه الأمة برحمته من هذه الحال، وأن يدخلنا وإياها بكرمه وجوده في أحسن الأحوال، وأن يهيئ لنا الأسباب فنزحزح عن النار وندخل الجنة عرَّفها لنا في نبيه وعبده ورسوله، أدخلها الناس يوم دخلوه، وعرفها الناس يوم عرفوه، وقامها الناس يوم قاموه. ولا جنة إلا ذلك، ولا

زحزحة عن النار إلا كذلك، ولا قيامة إلا ذلك.. ولا حساب إلا ذلك.. ولا ساعة إلا ذلك.. أما الذين يستعجلون بها خافية عن عقولهم بعيدة عن إيمانهم فهم في ضلال بعيد، والمؤمنون بها قائمة بهم فاعلة عليهم مشفقون منها ويعلمون أنها الحق.

هذا هو الحق من ربكم تبينه لكم السماء مرة أخرى على مثال مما قام به رسول الله فحمله فبلغه، مستعملا حكمته معاملا برحمته. فنسأل الله أن يهيئ أسباب الخير وأسباب الانتفاع لأمته، وأن يجعل لنا نصيبا موفورا من رسالة السماء برحمته.

اللهم اجمعنا برحمتك على عبدك ورسولك وطلعتك. اللهم اغفر لنا ذنوبنا وتولنا في الصغير والكبير من أمرنا وكن لنا حيث كنا، وعاملنا بما أنت له أهل، وعافنا مما نحن له أهل. اللهم خذ بيدنا، وأنر الطريق أمامنا، وسدد في الطريق خطانا، واجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك. وولِ أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا برحمتك. وخذ بيدنا وانصرنا حكاما ومحكومين على أنفسنا عبادا وعابدين وعبادا صالحين. لا إله غيرك إلهنـــا أنت يا رب العالمين ويا سيد الأولين والآخرين.

أضواء على الطريق

(إن أشق بند في مهمتنا هو عند ما يكون علينا أن نقف بجانبكم، ونشاهدكم تقاسون، ونحن نعلم أنه يجب أن لا نساعدكم لأنها معركة لروحكم أنتم.. فإذا كسبتم المعركة كسبنا نحن بكسبكم، وإذا خسرتموها خسرنا بخسرانكم. إنها معركتنا دائما في الحقيقة، ولكن يجب علينا ألا نرفع أصبعا للمساعدة).

(وكم سكبت الدموع في بعض الأحيان لأني رأيت المقاساة، وكان واجبي عدم المساعدة، ذلك هو القانون، لقد آلمني أكثر مما آلم المقاسي).

من هدي السيد الروح المرشد سلفر برش.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف: "رجب شهر الله وشَعْبَانُ شَهْرِي، ورمضانُ شَهْرُ أمتي." أخرجه الديلمي، وابن الجوزي في "الموضوعات"، وابن عساكر في "المعجم"، ويصفه غالبية المحدثين بأنه موضوع.

٢ من خطبة للإمام علي كرم الله وجهه من كتاب نهج البلاغة: "أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ...".

٣ سورة فاطر - ١٥